الذِّكر والذَّاكرون

٣٥ ـ يقولُ ربُّ العِزَّة في الحديث القدسي:

«أنا مَعَ عَبْدي إذَا هُوَ ذَكرني، وتحركَتْ بِي شَفَتَاهُ»[1].

اللَّه سبحانه وتعالى يريد من عباده الذِّكْر، فكُلما ذكروه سبحانه وشكروه شكرَهم وزَادَهم، هذه هي رغبة الكريم في أنْ يُعطي بشرط أنْ نكون أَهْلاً للعطاء، لأنه يريد أنْ يُعطيك أكثرَ وأكثرَ.

ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿فَاذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢].

اذكروا اللَّه في كُلِّ شيء: في نعمه، في عطائه، في سِتْره، في رحمته، في تَوْبته. فاذكروني بالطاعة أذكرْكُم بالخير والتجلّيات، فالذِّكْر يُورِث اطمئنان القَلب.

يقول تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

ومعنى الاطمئنان سكونُ القلب واستقرارُه وأُنْسُه إلى عقيدة لا تطفو إلى العقل لِيُناقِشها من جديد، فالقلب يطمئنُّ بذكر اللَّه، فما أنْ يَذكرَ اللَّه حتى يجد الاطمئنان، ويثبت قلبه.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢/ ٥٤٠)، وأخرجه البخاري في صحيحه معلقاً مجزوماً به (كتاب التوحيد ـ باب ٤٣) وعزاه ابن حجر العسقلاني في الفتح (١٣/ ٥٠٠) لأحمد والبخاري في خلق أفعال العباد والطبراني من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه.
قال ابن حجر: «قال ابن بطال: معنى الحديث: أنا مع عبدي زمان ذكره لي، أي أنا معه بالحفظ والكلاءة لا أنه معه بذاته، حيث حل العبد. ومعنى قوله: «تحركت بي شفتاه» أي: تحركت باسمي لا أن شفتيه ولسانه تتحرك بذاته تعالى لاستحالة ذلك. انتهى».

ولكن الحق سبحانه يقول في آية أخرى:

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢].

والوَجَلُ هو الخوف في فزع ينشأ منه قشعريرة واضطراب في القلب، وإذا كان ذكر الله عز وجل يدفع قلوب المؤمنين إلى الوجل، ألا يتنافى ذلك مع قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨].

في الحقيقة، لا يوجد تعارضٌ بين القولين، لأن ذِكْر الله تعالى يأتي بأحوال مُتعدّدة، فإنْ كان الإنسانُ مُسْرِفاً على نفسه، فهو يرجفُ حين يذكر الله الذي خالف منهجه، وإنْ كان الإنسان يُراعي حَقَّ الله في كل عمل قَدْر الاستطاعة فلا بُدَّ أن يطمئن قلبُه لحظة ذِكْر الله، لأنه اتبع منهج الله ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

إذن: فالخوف أو الوجل إنما ينشأ من مهابة وسَطْوة صفات الجلال، والاطمئنانُ إنما يجيء من إشراقات وحنان صفات الجمال.

ولذلك تجمعهما آيةٌ واحدة هي قَوْل الحقّ تبارك وتعالى: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ . . . ﴾ [الزمر: ٢٣].

فالجلود تقشعر خوفاً ووَجَلاً ومَهَابة من الله عز وجل، ثم تلين اطمئناناً وطَمَعاً في حنان المَنَّانِ سبحانه وتعالى.

ويقول الحق سبحانه: ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ (١) وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

والذِّكْر مرور الشيء، إنْ كان بالبال فهو ذِكْر في النفس، وإنْ كان باللسان ولا يُسمع الغير ويُسمعك أنت، فهذا ذِكْر السر، وإنْ كان جَهْراً، فالمطلوب منك أنْ يكونَ دون الجَهْر، فلا ترفع صوتك بالذِّكْر لدرجة الإزعاج.

---

(١) الأصيل: الوقت حين تصفرّ الشمس بعد العصر إلى المغرب، وقد يُراد به العشي. والجمع أُصُل. وجمع الجمع آصال. (القاموس القويم ١/ ٢١).

والحق سبحانه يقول مرة: ﴿ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ . . . ﴾ [الأحزاب: ٤١].

ومرة يقول: ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ . . . ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

فقوله: «اذكر الله» يُشعِر سماعها التكاليف؛ لأن اللَّه هو المعبود، والمعبود هو المطاع في الأوامر والنواهي.

أما قوله: «اذكر ربك» فهو تذكير لك بما حباكَ به من أفضال، خلقك وربّاك، وأعطاك من فَيْض نعمه مَا لا يُعَدُّ ولا يُحصَى، فاذكر ربك؛ لأنك إنْ لم تعشقْه تكليفاً فأنت قد عشقتَه لأنه مُمِدُّك بالنِّعَم، وسبحانه يتفضّل علينا ويُوالينا جميعاً بالنعم.

وأضرب لك هذا المثل ـ وللّه المثَلُ الأعلى وهو منزّه عن التشبيه ـ وأنت لك أولاد، وتعطي لهم مصروفاً، وحين تعطي لهم المصروف كل شهر تجدهم لا يحرصون على أنْ يروْكَ إلا كل شهر، لكن إن كنت تعطي لهم مصروفهم يومياً، فأنت تلتفت لتجدهم حولك.

فإن كنت نائماً يدخل ابنك لغرفة نومك يسير بجانبك ويتنحنح ليقول: إنه يحتاج لشيء موجود بالغرفة، فما بالك وأنت بكل وجودك عَبْدٌ لإحسان ربّك؟

وما دُمْتَ عَبْدَ الإحسان فاذكر مَنْ يُحسِن إليك، اذكر ربك دائماً. واذكره على حالين، اذكره تضرُّعاً أي بذلّة؛ لأنك قد تذكر واحداً بكبرياء إنما اللّه الخالق المحسن يجب عليك أن تذكره بذلّة عبودية لمقام الربوبية.

واذكر ربك خِيفة أي: خائفاً مُتضرِّعاً؛ لأنك كلما ذللْتَ له يعِزُّك، فعبوديتك للّه تعطي خَيْرَ اللّه لك.

والذكْر حدث، والحدث يحتاج إلى زمان وإلى مكان، والغُدوّ والآصال زمنان يستوعبان النهار، فالغدوُّ هو أول النهار، والآصال هو من العصر للمغرب.

هذه الأزمنة التي يُطلب فيها الذكر، فقبل أن تخرج للعمل في أول النهار أنت تحتاج لشحنة من العزيمة تقابل بها العمل من أجل مطالب الحياة، وفي نهاية النهار أنت تحتاج أن تركن إلى ربك ليُزيح عنك متاعب هذا اليوم.

لذلك، إياك أنْ تشغلك الحياة عن واهب الحياة، ولك أن تذكرَ ربّك وأنت تعيش مع كل عمل تؤدّيه وتقوم به، وأنْ تقابل كُلَّ نتيجة للعمل بكلمة «الحمد للّه»[١]، وعندما ترى أي جميل من الوهاب سبحانه وتعالى يجب عليك أنْ تقول: «ما شاء اللّه»[٢]، وعندما ترى أيّ شيء يعجبك تقول: «سبحان اللّه».

ولذلك، حينما دعا اللّه خَلْقه المؤمنين به إلى صلاة الجمعة قال:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الجمعة: ٩].

ونعرف أن الصلاة إنما هي ذِكر لربنا، فماذا بعدها؟

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠].

أي: إياك أن يشغلك انتشارك في الأرض وابتغاؤك من فضل اللّه، والأخْذ بأسباب الدنيا عن واجبك نحو اللّه، بل عليك أنْ تذكرَه سبحانه وتعالى.

فالحق سبحانه يطلب من المؤمنين به ـ وهو العليم ـ أن يداوموا الولاء له سبحانه كل يوم خَمْس مرات، ثم بعد صلاة الجمعة يطالبهم بالانتشار في الأرض والابتغاء من فضل اللّه تعالى، وينبّهنا أن نداوم على ذكره، فكأنه يقول:

إياكم أن تلهيكم أعمالكم ومصالحكم الدنيوية عن ذكر اللّه[٣]، أو تعتقدوا أن ذكر اللّه في المسجد أو وقت الصلاة فقط، بل داوموا على ذِكْر اللّه في كل أحداث الحياة، فإنْ فعلتُم ذلك وذكرتم اللّه كثيراً فستكونون من المفلحين.

---

(١) ورد ذكر «الحمد للّه» في القرآن ٢٤ مرة، وكلها تأتي بعد نعمة يتمها اللّه على خلقه مثل: خلق السماوات والأرض ـ الهداية إلى الحق ـ وهب البنين لإبراهيم ـ نزول الكتاب ـ النجاة من الظالمين ـ إذهاب الحزن.

(٢) يقول تعالى: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ . . .﴾ [الكهف: ٣٩].

(٣) يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩].

وذِكْر اللَّه كثيراً معناه أنك تشعر في كل لحظة أن اللَّه سبحانه وتعالى معك، فتخشاه وتحمده، وتستعين به، وهكذا تكون الصِّلة دائمةً بينك وبين اللَّه عز وجل في كل وقت.

إن رسول اللَّه ﷺ وهو معصوم ومُوحىً إليه وله من الصحابة ما يطمح أيُّ عبد مؤمن أن يتخذه قدوة له، هذا الرسول الكريم نجد بعضاً من وصفه في حوار بين سيدنا الحسين رضوان اللَّه عليه وأبيه سيدنا علي كرم اللَّه وجهه.

قال الحسين: يا أبي، قُلْ لي عن مجلس رسول اللَّه ﷺ.

قال علي كرّم اللَّه وجهه: كان رسول اللَّه ﷺ لا يجلس ولا يقوم إلا على ذِكْر[1].

وفي الحديث: «**كان رسول اللَّه ﷺ يكثر الذِّكر**»[2].

لماذا؟ لأن الجلوس والقيام هو إبطال حركة بحركة، فمَنْ كان قائماً فقعد فقد أدَّى حركة هي القعود، ومَنْ كان جالساً فقام فقد أدَّى حركة هي القيام.

فكان رسول اللَّه ﷺ يذكر اللَّه في كل حركة، شاكراً نعمة الخالق عز وجل، وهو يُوجِّه الإنسان إلى ذكر خالقه عند كل قيام أو قعود، ورسولنا ﷺ يُعلّمنا أنه عند كل انفعال بكل حركة من الحركات علينا أنْ نذكرَ الذي خلقنا وخلق فينا القدرة على الحركة.

وقد قال ﷺ: «**إذا استيقظ أحدكم فليقل: الحمد للَّه الذي ردَّ عليَّ روحي، وعافاني في جسدي، وأذن لي بذكره**»[3].

---

(١) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٢٧٣) عن الحسن بن علي قال: سألت خالي هند بن أبي هالة التميمي، وقال: «رواه الطبراني وفيه مَنْ لم يسم» وقد أخرجه أيضاً البيهقي في دلائل النبوة (١/ ٢٨٦).

(٢) أخرجه النسائي في سننه (٣/ ١٠٩) والحاكم في مستدركه (٢/ ٦١٤) من حديث عبد اللَّه بن أبي أوفى وتمامه: «كان رسول اللَّه ﷺ يكثر الذكر، ويقل اللغو، ويطيل الصلاة، ويقصر الخطبة، ولا يستنكف أن يمشي مع الأرملة والمسكين فيقضي له الحاجة». قال الحاكم: «صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه».

(٣) أخرجه النسائي في «عمل اليوم والليلة» (حديث ٨٧٢) من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه.

فعلينا أنْ نُحسن الأدب مع اللَّه بأنْ نذكره في كل حركة، فكل شيء في هذا الكون باسم اللَّه، يتم باسم اللَّه وبإذن من اللَّه، وحين لا تبدأ العمل باسم اللَّه قد يصادفك الغرور والطغيان بأنك أنت الذي سخَّرْتَ ما في الكون ليخدُمَك وينفعل لك.

وحين لا تبدأ العمل باسم اللَّه، فليس لك عليه جزاء في الآخرة، فتكون قد أخذت عطاءه في الدنيا، وبترْتَ أو قطعْتَ عطاءه في الآخرة، فإذا كنت تريد عطاء الدنيا والآخرة فأقْبِلْ على كل عمل باسم اللَّه.

قبل أنْ تأكلَ قُلْ: باسم اللَّه؛ لأنه هو الذي خلق لك هذا الطعام ورزقك به، عندما تدخل الامتحان قُلْ: باسم اللَّه فيُعينك على النجاح، عندما تدخل إلى بيتك قُلْ: باسم اللَّه؛ لأنه هو الذي يسَّر لك هذا البيت، عندما تتزوَّج قُلْ: باسم اللَّه؛ لأنه هو الذي خلق هذه الزوجة وأباحها لك.

في كل عمل تفعله ابدأه باسم اللَّه؛ لأنها تمنعك من أيِّ عمل يُغضِب اللَّه سبحانه وتعالى، فأنت لا تستطيع أنْ تبدأ عملاً يُغضِب اللَّه باسم اللَّه، إذا أردت أن تسرق أو أن تشرب الخمر، أو أنْ تفعل عملاً يُغضِب اللَّه، وتذكرْتَ باسم اللَّه، فإنك ستمتنع عنه، ستستحي أنْ تبدأ عملاً باسم اللَّه يُغضِب اللَّه، وهكذا ستكون أعمالك كلُّها فيما أباحه اللَّه.

والحق سبحانه يقول:

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ . . .﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

والحق سبحانه يقول: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ . . .﴾ [الإسراء: ١١٠].

فاختار هذا الاسم بالذات (اللَّه) العَلَم على واجب الوجود، وهو اسمُ ذاتٍ لا يدلُّ على صفة معينة، لكنه يحمل في طياته كُلَّ صفات الكمال فيه، فإن كان للأسماء الأخرى مجال، فالقادر في القدرة، والحكيم في الحكمة، والقابض في القَبْض، والعزيز في العزة، فإن لكل اسم مجالاً وسِيالاً، فإن (اللَّه) هو الاسم الجامع لكل الصفات.

﴿أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ . . .﴾ [الإسراء: ١١٠].

فأيُّ اسم تدعو به، لأن أسماءه كلها حسنى، لكن لِيكُنْ عندك ذكاء في الدعاء، فتدعو بما يناسب حاجتك، فإنْ أردت عِلْماً فقُلْ: يا عالم علِّمني، وإنْ كنتَ ضعيفاً فقُلْ: يا قويُّ قوِّني، وإنْ أردتَ العزة فقُلْ: يا عزيز أعِزَّني وهكذا... فإنْ أردت فقُلْ: يا اللَّه تكفِكَ كل شيء.

والتسبيح من ذِكْر اللَّه عَزَّ وجَلَّ، قال تعالى:

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٩٨].

فهكذا يمكن أن تُذهِبَ عنك أيَّ ضيق، أن تُسبِّح اللَّه، فإذا ما جافاك البشر أو ضايقك الخَلْق، فاعلم أنك قادر على الأُنس باللَّه عن طريق التسبيح، ولن تجدَ أرحم منه سبحانه، وأنت حين تُسبِّح ربَّك فأنت تُنزِّهه عن كلِّ شيء وتحمده، لتعيش في كَنَفِ رحمته.

ولذلك نجده سبحانه يقول في موضع آخر: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصافات: ١٤٣، ١٤٤].

ولذلك إذا ضاق صدرُكَ في الأسباب فاذهب إلى المُسبب.

ونحن دائماً نقرِنُ التسبيح بالحمد، فالتنزيه يكون عن النقائص في الذات، أو في الصفات، أو في الأفعال، وسبحانه كامل في ذاته وصفاته وأفعاله، فذاتُه لا تشبه أيَّ ذات، وصفاته أزلية مطلقة.

والحق سبحانه هو القائل:

﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [الروم: ١٧].

فكل من المساء والصباح آية منه سبحانه، فحين تغيب الشمس، فهذا إذْنٌ بالراحة، وحين تصبح الشمس فهذا إذنٌ بالانطلاق إلى العمل، وتسبيح المخلوق للخالق هو الأمر الذي لا يشارك اللَّهَ فيه أحدٌ من خَلْقه أبداً.

فكأنَّ سَلْوى المؤمن حين تضيق به أسباب الحياة أنْ يفزع إلى ربه من قسوة الخَلْق؛ ليجد الراحة النفسية؛ لأنه يأوي إلى رُكْن شديد.

ولهذا، فعليك أنْ تصحبَ التنزيه بالحمد، فأنت تحمد ربك لأنه مُنزَّه عن أن يكون مثلك، والحمد للَّه واجب في كل الأوقات، فسبحانه الذي خلق المواهب كلها لتخدمك، وحين ترى صاحب موهبة وتغبطه عليها، وتحمد اللَّه

سبحانه أنه قد وهبه تلك الموهبة، فَخَيْر تلك النعمة يصل إليك.

وحين تُسبّح بحمد الله، فسبحانه لا يخلف وعده لك بكل الخير، فكلُّنا قد نُخلف الوعد رغماً عنا، لأننا أغيار، أما الحق سبحانه فلا يخلف وعده أبداً، ولذلك تغمرك النعمة كلما سبَّحْت الله وحمدته.

والحق سبحانه يقول:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۝ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٤٢].

ويقول تعالى: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وتسبيح الله وتنزيهه ثابت لله تعالى قبل أنْ يخلقَ منْ يُنزّهه، وثابت لله من جميع مخلوقاته في السماوات والأرض، فلا تكُنْ أيها الإنسان نَشَازاً في منظومة الكون، ولا تخرج عن هذا النشيد الكونيّ.

فالتسبيح لغة الكون كله، منه ما نفهمه، ومنه ما لا نفهمه، إلا منْ أطلعه الله عليه، فجميع الأجناس من جماد ونبات وحيوان تسجد لله لا يتخلف منها شيء، فهي تسجد وتسبّح بالإجماع، وأحْرى بالإنسان أنْ يكون مُنسجماً مع الكون فلا يشذ عنه في تسبيحه لله وذِكْره سبحانه.

الأمة الوسط

٣٦ ـ عن أبي سعيد رضي الله عنه قال[١]: قال رسول الله ﷺ: «يجيء النبيُّ ومعَهُ الرجُلانِ، ويجيءُ النبيُّ ومعَهُ الثَّلاثةُ وأكثرُ من ذَلِكَ وأقلّ، فيُقالُ له: هَلْ بلَّغْتَ قومَكَ؟ فيقول: نعَمْ. فيُدْعى قومُه، فيُقالُ: هل بلَّغكم؟ فيقولون: لا. فيُقالُ: مَن شَهِدَ لك؟ فيقول: محمد وأمتُه، فتُدْعى أمةُ محمد فيُقالُ: هل بلَّغ هَذا؟ فيقولون: نَعَمْ. فيقول: وما عِلْمكُم بذلك؟ فيقولُونَ: أَخبَرنا نبيُّنا بذلكَ أنَّ الرُّسُلَ قَدْ بلَّغوا فصدَّقْناهُ. قال: فذلِكُم قولُه تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]».

فالأمة التي تتبع منهج الإسلام ـ وهو منهج الاعتدال ـ هي الأمة المهتدية التي تسير إلى العمل الصالح الصحيح، وتعمل به وتُطبِّقه؛ لأنه المنهج الذي ينسخ ما قبله ويُصحِّحه.

والرسول ﷺ هو المهيمن على كُلِّ منْ سبقه من الرسل، وحياته وما جاء فيها من سلوك هو سُنة إيمانية تهدي المؤمنين إلى الطريق المستقيم.

والحق سبحانه يريدنا أن نتنبه إلى نعمته في أنه جعلنا أمةً وسَطاً، فكُلُّ ما يُشرِّعه الله يدخل في باب النعم على المؤمنين، وإذا كان الاتجاه إلى الكعبة هو اختبارٌ لليقين الإيماني في نفوس المسلمين، فإنه سبحانه جعلنا أمة وَسَطاً نعمة منه سبحانه.

وما دُمْنا وَسَطاً فلا بُدَّ أن هناك أطرافاً حتى يتحدَّد الوسط، هذا طرف،

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣/ ٥٨)، وابن ماجه في سننه (٤٢٨٤) من حديث أبي سعيد الخدري. وقد أخرجه أيضاً البخاري في صحيحه (٤٤٨٧) وأحمد في مسنده (٣/ ٣٢) من حديث الخدري أيضاً.

ثم الوسط، ثم طرف آخر، ووسط الشيء منتصفه أو ما بين الطرفين.

ولكن ما معنى «أمة وسطاً»؟ وسط في الإيمان والعقيدة، فهناك مَنْ أنكروا وجود الإله الحق، وهناك مَنْ أسرفوا فعدّدوا الآلهة، هذا الطرف مخطئ، وهذا الطرف مخطئ.. أما نحن المسلمين فقلنا: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، واحد أحد.

وهذه بدهية من بَدَهيات هذا الكون؛ لأن الله ـ تبارك وتعالى ـ خلق الكون وخلق كل ما فيه، وقال سبحانه: إنه خلق.. ولم يَأتِ، ولن يأتي مَنْ يدّعي الخَلق.

إذن: فالدَّعْوى خالصة لله ـ تبارك وتعالى ـ ولو كان في هذا الكون آلهة متعددة لادّعى كل واحد منهم الخَلْقَ؛ ولذلك فإن الله جلّ جلاله يقول:

﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [المؤمنون: ٩١].

أي: لَتنازعَ الخلق ولاضطربَ الكون، فالإسلام دين وسط بين الإلحاد وتعدُّد الآلهة، على أن هناك أُناساً يُسرفون في المادية ويُهملون القِيم الروحية، وأُناساً يهملون المادة ويؤمنون بالقيم الروحية وحدها.

واقع الحياة أن الماديين يفتنون الروحانيين؛ لأن عندهم المال والقوة، الإسلام جاء وسطاً، فيه المادة والروح، وإياك أن تقول: الروح أحسن من المادة، أو المادة أحسن من الروح، فالمادة وحدها والروح وحدها مُسخَّرة وعابدة ومُسبِّحة لله تعالى، لكن حين تختلط المادة بالروح فإنه توجد النفس، والنفس هي التي لها اختيار، تطيع أو تعصي، تعبد أو تكفر، والعياذ بالله.

الله سبحانه يريد من المؤمنين أن يعيشوا مادية الحياة بقيم السماء، وهذه وسطية الإسلام، لم يأخذ الروح وحدها، ولا المادة وحدها، وإنما أوجد مادية الحياة محروسة بقيم السماء، فحين يخبرنا الله سبحانه أنه سيجعلنا أمة وَسَطاً تجمع خَيْرَ الطرفين، نعرف أن الدين جاء ليعصمَ البشر من أهواء البشر.

والحق سبحانه يقول: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ...﴾ [البقرة: ١٤٣].

أي: أن الحجة ستكونُ لكم في المستقبل، وسيضطر العالم إلى الرجوع إلى ما يُقنّنه دينكم.

واللّه تبارك وتعالى قال: ﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، ولم يقل «الوِسط» بكسر الواو ـ أي: المنتصف ـ حتى لا يُقال: إن هؤلاء الرأسماليين والشيوعيين سيتراجعون إلى الحق تماماً. ولكن بعضهم سيميل قليلاً إلى هذه الناحية أو تلك، بحيث يتم اللقاء.

ولذلك عندما يقولون: نأخذ أموال الأغنياء ونُوزّعها على الفقراء نقول لهم: وعندما يأتي فقير في المستقبل.. من أين تعطيه بعد أنْ قضيتَ على الأغنياء؟

وقد سمعتُ من شخص له تجربة في السياسة والحكم قال: إن الذي كان يعمل معي وأضاع ماله كله على الخمر والقمار والنساء كان أحسنَ منّي؛ لأنني احتفظت بأموالي ونمّيتها فقالوا: إنك إقطاعي وصادروها.. بينما ذلك الذي أسرف لم يفعلوا به شيئاً.

قلت: إن اللّه ـ سبحانه وتعالى ـ يريد منك أنْ تُنمّيَ مالك؛ لأنك إنْ لم تُنَمّه ودفعتَ عنه زكاةَ (٢,٥٪)، فالمال يَفْنى خلال أربعين سنة، ولكن إذا نميتَ مالك وجاؤوا إلى ناتج عملك وأخذوه بدعوى أنك إقطاعيٌ، فإنهم يقضون على العمل في المجتمع؛ لأنه إذا كان سيأخذ ناتج عمله بدون حَقٍّ، فلماذا يعمل؟

إن الإسلام جاء ليزيد مجال حركة الحياة ويضمن مال المتحرك، ليأخذ من ماله زكاة، ويُعين غير القادر حتى لا يحقد على المجتمع، هذا وَسَط.

ولأن منهج الإسلام هو المنهج الوسط، فكانت الأمة المكلّفة بتبليغ هذا المنهج هي خير أمة أُخْرِجَتْ للناس، فقال الحق سبحانه: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

فالحق سبحانه وضع عناصر الخيرية في أمة محمد ﷺ إلى قيام الساعة، وائتمن اللّه تبارك وتعالى أمة محمد ﷺ على المنهج؛ لذلك لم يأتِ نبيٌ بعد سيدنا رسول اللّه ﷺ.

فالمصافي الاجتماعية ستظل موجودة في أمة محمد ﷺ، أما الأمم السابقة، فبمرور الزمان يتخفَّف أتباع الرسالات السابقة من التكاليف، حتى اندثرتْ وذهبتْ، ومن رحمة اللَّه تعالى بخَلْقه يُجدِّد سبحانه وتعالى الرسالة ببعْثِ رسول جديد.

والرسالة الجديدة تُعطِي ما كان موجوداً أوّلاً، فيما يتعلق بالعقائد والأخبار، والأشياء التي لا تتغير، وتأتي الرسالة الجديدة بالأحكام المناسبة لزمن الرسالة، فإذا أمكن للبشر أنْ يعُدّلوا من سياسة البشر يظل الأمر كما هو، فإنِ ارتكب واحد مُنكراً وضرب قومه على يده استقام أمْرُ الرسالة، وبقيت هذه الأمة على الخير.

لماذا؟ لأن مَصَافي اليقين في النفس الإنسانية موجودة، ونحن نراها ونلمسُها، إن هناك واحداً تجد مصافي اليقين في ذاته، وقد لا يقدر على نفسه فيرتكب المعصية وتلومه نفسه، فيرجع عن المعصية.

وتجد إنساناً آخر لا يجد في نفسه مصافي اليقين، ولكنها موجودة في غيره، فنجد مَنْ يأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر، فإذا امتنعتْ المصافي الذاتية للإيمان، وكذلك امتنعتْ المصافي الإيمانية في المجتمع، فلا أملَ هنالك، لذلك يجب أنْ يأتيَ رسول جديد، ويُنبِّه الناس بمعجزة ما.

لذلك قال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران: ٣٣].

فأمة محمد أفضل أمة أُخرِجَتْ للناس لا حَسَباً ولا نَسَباً، ولكن اتباعاً لمنهج، ومَن يتَّبع المنهج بـ «افعل» و«لا تفعل» فهو الذي يُطبِّق عملية الإيمان باللَّه، ومن أهل الكتاب مَنْ يؤمن باللَّه فيصير مسلماً، ولكن الكثير منهم يخرج عن حدود الإيمان.

فموكب الرسالات سائر من لَدُنْ آدم، وكلما طرأتْ الغفلة على البشر أرسل اللَّه رسولاً يُنبِّههم، ويُوقِظ القيم والمناعة الدينية التي توجد في الذات، بحيث إذا مالتْ الذات إلى شيء انحرافي تتنبه الذاتُ نفسها وتقول: لماذا فعلتُ هكذا؟ وهذه هي النفس اللوّامة، فإذا ما سكتتْ النفس اللوامة واستمرأ

الإنسان الخطأ، وصارت نفسه أمّارة بالسوء طوال الوقت، فالمجتمع الذي حوله يُعدِّله.

أما إذا فسد المجتمع ولم يجد العاصي مَنْ يوصيه ويأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر، فإن الله يتدخَّل بإرسال رسول جديد، ومعجزة جديدة، ومنهج جديد، لكن الله ائتمن أمة محمد ﷺ على هذا الأمر، فلم يجئ رسول بعده؛ لأننا خَيْر أمة أُخرِجَتْ للناس.

والخيرية تتجلى في أننا نأمر بالمعروف، وننهى عن المنكر، فالتواصي باقٍ إلى أنْ تقومَ الساعة، وهذه خاصية لن تنتهي أبداً، فإنْ رأيت منكراً فلا بُدَّ من خلية خَيْر تنكره. وتقول: لا.

وإذا كان الحق قد جعل محمداً ﷺ خاتم الرسُل، فذلك شهادة لأمته أنها أصبحت مأمونة، وأن المناعة الذاتية فيها لا تمتنع ولا تنقطع، وكذلك لا تمتنع منها أبداً المناعة الاجتماعية فلن يأتي رسول بعد سيد الخلق سيدنا محمد ﷺ.

فخيرية هذه الأمة ناشئة من حَمْل رسالة الدعوة، وقد كرَّم الله أمة محمد بأنْ جعل كل مَنْ آمن به يحمل دعوته إلى يوم القيامة، لقد بلَّغ الرسول مَنْ عاصروه من أمته، وعلى أمته أنْ تبلِّغ مَنْ بعده؛ لذلك يشهد علينا رسول الله، ونشهد نحن على الناس.

وفي الحديث الشريف: «**نضَّر الله امرءاً سمع مقالتي فوعاها، ثم أدّاها إلى مَنْ لم يسمعها، فرُبَّ مُبلَّغ أوْعَى من سامع**»[1].

وهكذا تظل في الأمة هذه الخيرية، وتحمل دعوة رسولها، حيث لا رسولَ من بعده إلى يوم القيامة، ولأهمية هذا الدور الذي يقوم به المسلمون في كل زمان ومكان يُنبِّهنا رسول الله ﷺ إلى مسألة هامة في مجال حَمْل الدعوة ونَشْرها، فيقول: «**كل منكم يقف على ثُغْرة من ثغرات هذا الدين، فإياكم أنْ يُؤتَى الدين من ثُغْرة أحدكم**».

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١/ ٤٣٧)، والترمذي في سننه (٢٦٥٧، ٢٦٥٨)، وابن ماجه في سننه (٢٣٢) والحميدي (١/ ٤٧) من حديث عبد الله بن مسعود.

فليعلم كل مسلم أنه محسوب للدين أو عليه، فالعيون تتطلع إليه وترصُد تصرُّفاته في مجتمعه، فهو صورة للدين وسفير له، وعليه أنْ يُراعي هذه المسؤولية، ويقوم بها على أكمل وجه ليكون أداة جَذْب، وليكون وَجْهاً مشرقاً لتعاليم هذا الدين.

وقد قال الحق سبحانه:

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٤١].

والشهيد هو: الذي يشهد ليُقرِّر حقيقة. ونحن نعلم أن الحق سبحانه أخبرنا: ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر: ٢٤].

وهذا النذير شهيدٌ على تلك الأمة أنه بلَّغها المنهج، ورسول الله ﷺ شهيد على أمته أنه بلَّغ، فيقول: أنا أبلغتهم الموقف، ولا عُذْرَ لهم لأنني أعلمتُهم به.

والله قد جاء بكتابه المعجزة، وفيه ما يثبت أن الرسل قد بلَّغوا أممهم، فكأن الرسول حين سُجِّل في كتابه المعجزة وكتابه المنهج أن الرسل قد بلَّغوا أممهم فهو سيشهد أيضاً.

والحق سبحانه وتعالى يُوضِّح أن حال هؤلاء سيكون فظيعاً حينما يأتي يوم العَرْض يوم القيامة، ويقولون: إننا بلغناكم، أو: أن الحق عرض هذه المسألة بالنسبة للرسل وأممهم، وبالنسبة لرسول الله ﷺ وأمته أو للأمم كلها، فنحن أيضاً سنكون شهداء: ﴿ لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣].

فنحن بنصّ هذه الآية أخذنا امتداد الرسالة.

وقد روى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال له: «**اقرأ عليَّ القرآن. فقلت: يا رسول الله، أقرأ عليك وعليك أُنزل؟ قال: نعم، إني أحبُّ أنْ أسمعه من غيري**، فقرأت سورة النساء، حتى أتيتُ إلى هذه الآية ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٤١]» فقال: «**حَسْبُك، فإذا عَيْناه تذرفان الدموع**»[(١)].

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١/ ٣٨٠)، والبخاري في صحيحه (٥٠٥٥) وكذا مسلم في صحيحه (٨٠٠) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

فإذا كان الشهيد ﷺ بكى من وَقْع الآية، فكيف يكون حال المشهود عليه؟ الشهيد الذي سيشهد بكى من الآية، نعم، لأنك تعلم أن رسول الله ﷺ مُلِئ قلبه رحمةً بأمته.

والحق سبحانه يُنبّهنا إلى ضرورة أنْ نستعدَّ لليوم الذي يجمع الله فيه الرسل يوم الحساب، أي: أننا علينا أنْ نراعيَ الالتزام في تكاليف المكلِّف الأعلى في كل عمل من أعمال الحياة؛ لأنه سبحانه سوف يسأل الرسل في ذلك اليوم.

يقول تعالى: ﴿ ۞ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١٠٩].

أي: أنهم سيُسْألون: كيف استجاب الناس للمنهج الذي دعوْتُم إليه؟ وفي هذا تقريع لمن خالف الرسل، ولم يؤمنوا برسالات الرسُل، ذلك أنَّ مهمة الرسل هي البلاغ عن الله.

يقول تعالى: ﴿ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النحل: ٣٥].

والبلاغ هو إنهاء الأمر إلى صاحبه، وقد قال نوح لقومه: ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦٢].

أي: أُبلِّغكم كُلَّ ما جعله الله منهجاً لأهل الأرض من الأمور المستقيمة الثابتة، مثلما قال سبحانه:

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

وهو الأمور المستقرة الثابتة العَقَديّة والأحكام التي لا تتغير. وفي آية أخرى قال سبحانه على لسان هود عليه السلام:

﴿ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ (١) وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: ٦٨].

---

(١) وقد ردَّ هود على قومه بهذا لأن الملأ الذين كفروا من قومه قالوا: ﴿ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ﴾ [الأعراف: ٦٦]، قال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٢٢٤): «أي: في ضلالة، حيث تدعونا إلى ترك عبادة الأصنام والإقبال على عبادة الله وحده».

وقال سبحانه في حَقّ صالح عليه السلام وقومه ثمود: ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٩].

وكأن سيدنا صالحاً قال ذلك ليتذكروا كيف أبلغهم رسالات الله ومنهجه ونصح لهم، وتحنّن عليهم أن يلتزموا بمنهج الله، لكنهم لم يستمعوا للنصح، ولم يُحبُّوا الناصحين؛ لأن الناصح يريد أن يُخرج المنصوح عما أَلِفه من الشرّ، وعندما ينصحه أحَدٌ يغضب عليه.

ويقول الله عن بلاغ عيسى عليه السلام لرسالة الله:

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ۝ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٦، ١١٧].

وهذا هو الحوار الذي سوف يدور بين الحق سبحانه وبين عيسى ابن مريم عليه السلام، يوم يجمع الحقُّ سبحانه وتعالى الرسل، وقد عرض سيدنا عيسى عليه السلام ـ من خلال قوله لربه تبارك وتعالى ـ المنهج الذي جاء به على الناس جميعاً، وبلَّغه تمام البلاغ، فقد أبلغ أنه: عَبْدٌ لله، وأنه رسوله.

وما دام الحق سبحانه علّام الغيوب فهو أعلم بكُلّ شيء حتى بما في النفس، كأنه يُثبتُ أيضاً أن نفسه لم تُحدّثه بأيّ خاطر من تلك الخواطر، ويعلن أنه لم يُبلِّغ إلا ما أمر به الله.

إن عيسى عليه السلام يقول عن نفسه: إنه مجرد شهيد على قومه في زمن وجوده بينهم، ولكن بعد أن رفعه الله إليه فالرقابة على القوم تكون لله، فالحق سبحانه شهيد دائماً ورقيب دائماً، ولكن عيسى ببشريته يقدر أنْ يشهدَ فقط، والله القادر وحده على أنْ يشهد ويُغيِّر ويمنع.

والحق سبحانه يُقرِّر في كتابه القرآن أنه ما من أمة إلا وقد أُرْسِل فيها رسول يُبلِّغ رسالات الله إلى قومه، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

ولكن، ماذا كان موقف أقوام الرسل منهم، يقول تعالى:

﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ . . .﴾ [النحل: ٣٦].

obeikandl.com

أَلْوَاحُ مُوسَى

٣٧ ـ عَنِ ابْنِ عبَّاسٍ عَنِ النبيِّ ﷺ قَالَ:

«لَيْسَ الخَبَرُ كالمعَايَنَةِ، قَالَ اللَّهُ لموسَى: إنَّ قومَكَ صَنَعُوا كَذَا وكَذَا، فَلَمْ يُبَالِ، فلمَّا عَايَنَ أَلْقَى الأَلْوَاحَ»[١].

يقول الحق سبحانه:

﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢].

هذا الوَعْد كان لإعطاء موسى المنهج، فحينما كلَّم اللَّه سبحانه وتعالى موسى بجانب الطور[٢] كان هذا لإبلاغ موسى عليه السلام أنه رسول من ربِّ العالمين، وأنه أرسله ليخلِّص بني إسرائيل من طغيان فرعون وعذابه، وأنه سيمدُّه بآيات ومعجزات، حتى يقتنع فرعون وقومه أن موسى رسول من اللَّه تبارك وتعالى.

وذلك بعد تكليف موسى بالرسالة وذهابه إلى فرعون، وما حدث مع السحرة، ثم نجاة موسى وقومه، بأنْ شقَّ اللَّه جَلَّ جلاله لهم البحر[٣]، هذا في وقت لم يكُنْ المنهج قد نزل بعد، ولذلك فبمجرد أن نجَّى اللَّه ـ سبحانه

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١/ ٢٧١)، والطبراني في معجمه الكبير (١٢٤٥١)، والحاكم في مستدركه (٢/ ٣٢١) من حديث ابن عباس رضي اللَّه عنهما. قال الحاكم: «حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» ولفظ أحمد: «ليس الخبر كالمعاينة، إن اللَّه أخبر موسى بما صنع قومه في العجل، فلم يلق الألواح، فلما عاين ما صنعوا ألقى الألواح فانكسرت».

(٢) الطور: جبل بسيناء نزل عنده موسى عليه السلام بعد خروجه مع قومه من مصر. ويُسمَّى أيضاً: ﴿طُورِ سَيْنَآءَ﴾ [المؤمنون: ٢٠]. ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ [التين: ٢]. (القاموس القويم ١/ ٤٠٨).

(٣) وذلك قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: ٦٣].

وتعالى ـ موسى وقومه وأغرق فرعون، كان لا بُدَّ أن يتم إبلاغ موسى بالمنهج.

وكان الوَعْد يشمل أربعين ليلة، هذه الليالي الأربعون حُدِّدَتْ كثلاثين أولاً، ثم أتمها الحق ـ سبحانه وتعالى ـ بعشر أخرى.

والوعد هو أن الله وعد موسى بعد أنْ تحدث عملية إنجاء بني إسرائيل أنه سبحانه سيُنزِل عليه كتاباً يجمع فيه كل المنهج المراد من خَلْق الله لتسيير حركة حياتهم عليه.

لكن ما إنْ ذهب موسى لميقات ربه حتى عبدوا العجل، في مدة الثلاثين يوماً، ولم يشأ الله أنْ يُرسِل موسى بعد الثلاثين يوماً[1]، بل أتمها بعَشْر أُخَر حتى لا يعود موسى ويرى ما فعله قومه، لأنه بعد أن عاد أمسك برأس أخيه يُعنِّفُهُ، ويشتد عليه، ويأخذ بلحيته يجرُّه إليه، إذ كيف سمح لبني إسرائيل أن يعبدوا العجل.

وفي ذلك يقول الحق على لسان هارون:

﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ [طه: ٩٤].

وقد كان موسى عليه السلام قد أوصى هارون بأن يخلفه في قومه، أي: أن يكون خليفة له فيهم إلى أن يرجع، والحق سبحانه يقول: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢].

وهو قَوْل فيه تحنُّن، أي: أن موسى يقول لأخيه هارون: لي بك صِلَةٌ قبل أن تكون شريكاً لي في الرسالة، فأنا أَخٌ لك وأنت أخٌ لي، ومن حَقِّي عليك أن تسمع كلامي وتخلفني، فالأُخوَّةُ مقرونة بأنك شريكٌ معي في الرسالة.

إذن: نجد أن موسى قد قدَّم حيثية الأُخوَّة، والمشاركة في الرسالة. وأكَّد عليه السلام بكلمة «قومي» أنهم أعزَّاء عليه، ولا يريد بهم إلا الخير

(١) قال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٢٤٣): «الأكثرون على أن الثلاثين هي: ذو القعدة والعشر عشر ذي الحجة. قاله مجاهد ومسروق وابن جريج».

الذي يريده لنفسه، فإذا جاءكم بأمر فاعلموا أنه لصالحكم، وإذا نهاكم نَهياً فاعلموا أن موسى هو أوّل مَنْ يُطبّقه على نفسه.

وقيل: كان موسى عليه السلام قد قام بإعداد نفسه للقاء ربه، ولا بُدَّ أن يكون الإعداد بطُهْر وبتطهير، وبتزكية النفس بصيام، فصام ثلاثين يوماً، وبعد ذلك أنكر رائحة فمه، فأخذ سواكاً وتسوّك به ليُذهب رائحة فمه.

فأوضح الحق سبحانه له: أما علمتَ يا موسى أن خُلوف[1] فم الصائم أطيب عندي من ريح المسك، وما دمت قد أزلت الخلوف وأنا أريد أنْ تُقبِلَ عليّ بريح المسك فزِدْ عشرة أيام حتى تأتي كذلك[2].

قال بعض العلماء: إن تفصيل الأربعين إلى ثلاثين وإلى عشرة؛ لأن الثلاثين يوماً هي الأيام التي عبد فيها القوم العجل بعد موسى، فكان ولا بُدَّ أن تكون هناك فترة من الفترات، حتى يميز الله الخبيث من الطيب.

ويقول الحق سبحانه:

﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۖ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

والميقات هو الوقت الذي يُعَدُّ لعمل من الأعمال، وجاء موسى لميقاتنا المضروب له بعد أربعين ليلة، وقال له: ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٤٤].

والاصطفاء هو استخلاص الصَّفْوة، والاصطفاء هنا لموسى بالرسالة كما

---

(١) الخلوف: تغيُّر ريح الفم لتأخر الطعام. (لسان العرب ـ مادة: خلف).

(٢) أخرج الديلمي في «الفردوس بمأثور الخطاب» (٣/ ٤٢٧) (حديث رقم ٥٣٠٩) عن ابن عباس رفعه: «لما أتى موسى ربه، وأراد أن يكلمه في الثلاثين يوماً وقد صامهن ليلهن ونهارهن، فكره أن يكلم ربه عز وجل، وريح فيه ريح الصائم، فتناول من نبات الأرض فمضغه فقال له ربه حين أتى موسى: لم أفطرت ـ وهو أعلم بالذي كان ـ قال: إني يا رب كرهت أن أكلمك إلا وفمي طيب الريح. قال: أما علمت يا موسى أن فم الصائم عندي أطيب من ريح المسك، ارجع فصم عشرة أيام ففعل موسى الذي أمره ربه، فلما كلم الله موسى قال له ما قال.

اصطفى غيره من الرسل، بالإضافة إلى شرف تكليم الله له.

وحينما خصّ الله موسى بميزة أن تكلّم إليه حصل من موسى استشراق اصطفائي، وكأنه قال لنفسه: ما دام قد كلّمني فقد أقدر أنْ أراه؛ لأن استطابة الأُنس تمدُّ للنفس سُبُلَ الأمل في الامتداد في الأشياء، فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

فقال الحق سبحانه له:

﴿لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۖ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗا﴾ [الأعراف: ١٤٣].

وسبحانه هنا يُعلِّل لموسى بعملية واقعية، فأوضح: لن تراني، ولكن حتى أُطمئنك أنك مخلوق بصورة لا تمكّنك من رؤيتي انظر إلى الجبل، والجبل مفروض فيه الصلابة والقوة والثبات والتماسك، فإنِ استقرَّ مكانه يمكنك أنْ تراني.

إن الجبل بحُكْم الواقع، وبحُكْم العقل، وبحكم المنطق أقوى من الإنسان، وأصْلَب منه وأشدّ، ولما تجلّى ربُّه للجبل اندكّ.

إذن: فمن الممكن أن يتجلى الله على بعض خَلْقه، ولكن المهم أيقْوى المستقبل للتجلّي أو لا يقوى؟

وبعد ذلك أراد الله أنْ يلفتنا لَفْتةً تصاعدية، ويُبيّن لنا أن موسى قد ضَعِق لرؤية المتجلَّى عليه، فكيف لو رأى المتجلّي؟

ويقول الحق سبحانه عن موسى عليه السلام: ﴿وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ[1] وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٥].

---

(١) قد ذكر السيوطي في الدر المنثور (٣/٥٥٩) آثاراً، ذكر فيها بعض هذه المواعظ المكتوبة في التوراة. منها:

ـ اتق الله يابن آدم، وإذا شبعت فاذكر الجائع. أخرجه أحمد في الزهد عن خالد الربعي.

ـ ابن آدم، ارحم ترحم، إنه من لا يَرحم لا يُرحم، كيف ترجو أن أرحمك وأنت لا ترحم عبادي. أخرجه أحمد عن قتادة.

ـ يابن آدم، لا تعجز أن تقوم بين يدي في صلاتك باكياً، فإني أنا الله الذي اقتربت =

ونحن نعرف الألواح، وكُنَّا نكتب عليها قديماً، وللكتابة على الألواح سبب، فقديماً كانوا يكتبون على أيِّ شيء مبسوط، وتبين لنا الآثار أن هناك كتباً مكتوبة على جلود الحيوانات، فمثلاً نجد قدماء المصريين قد كتبوا على الأحجار، مثل حجر رشيد الذي أتاح لنا معرفة تاريخهم.

وكان العرب يكتبون على اللُّخف المأخوذة من النخل، وكذلك كتبوا على عظام الذبائح، أخذوا منها قطعة العظم المبسوطة مثل عظم اللوح وكتبوا عليها، وكانت هذه الوسيلة مشهورة جداً لديهم، وصار كل مكتوب عليه يُسمُّونه لَوحاً.

لقد أوضح سبحانه أنه كتب في الألواح الموعظة والتفصيل لمنهج الحياة، والموعظة تعني ألاَّ تُنشِئ حُكْماً للسامع، بل تَعِظُه بتنفيذ ما عُلِم له من قبل؛ ولذلك يُقَال: واعظ، وهو الذي لا يُنْشئ مسائل جديدة، بل يعرف أن المستمع يعلم أركان الدين ويَعظُه بما يعلم.

والحق سبحانه يأمر موسى أن يأمر قومه أنْ يأخذوا بأحسنها، فيقول تعالى: ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ [الأعراف: ١٤٥].

فالإنسان إذا روَّض نفسه وذلَّلها وعوَّدها على الأحسن يكون قد فَهِم عن الله، فهناك حَسَن وهناك أَحْسَن، فلتأخذوا بالأحسن منهما.

ولكن بني إسرائيل لم يعملوا وَفْقَ منهج الإيمان، بل إنهم عبدوا عِجْلاً صنعه لهم السامري[1] من الذهب الذي سرقوه من أهل مصر، فقال تعالى:

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٨].

= لقلبك، وبالغيب رأيت نوري. أخرجه أحمد وأبو نعيم في الحلية عن مالك بن دينار.
ـ ابن آدم، تفرَّغ لعبادتي أملأ قلبك غنى وأسُدَّ فقرك، وإن لا تفعل أملأ قلبك شغلاً ولا أسدَّ فقرك. أخرجه أحمد وأبو نعيم عن خيثمة.

(١) السامري: رجل من منافقي بني إسرائيل، أغواهم بعبادة عجل صنعه كعجل أبيس من الحليّ أثناء غياب موسى عليه السلام لمناجاة ربه. (القاموس القويم ١/ ٣٢٧). والسامرة: قبيلة من قبائل بني إسرائيل قوم من اليهود يخالفونهم في بعض دينهم، إليهم نسب السامري الذي عبد العجل. (لسان العرب ـ مادة: سمر).

لقد احتال بنو إسرائيل على أهل مصر، وأخذوا منهم الحلي كسلفة سيردونها من بعد ذلك[1]، ثم جاء رحيلهم فأخذوا الحلي معهم، وغرق قوم فرعون وبقيتْ الحليّ مع قوم موسى، وصنع السامري من ذهب هذه الحليّ عِجلاً.

وقد صنعه السامريّ من الذهب، وكأنه يريد أنْ يتميز عن الآلهة التي كانت من الأحجار، وحاول أن يجعله إلهاً نفيساً، فصنعه من الحليّ المسروقة، وصنعه بطريقة تجعل هذا العجل الجسد إذا ما استقبل من دُبره هَبَّة الهواء صنعتْ وأحدثتْ في جوفه صوتاً يشبه صَوْت وخُوار البقر الذي يخرج من فمه.

وقد اختار السامري العجل؛ لأنهم حين خروجهم من مصر، رأوْا قدماء المصريين وهم يعبدون العجل لمزية فيه، فقد كانوا يرونَ فيه مظهر قوة، كما عبد الآخرون الشمس حين رأوا فيها مظهر قوة، وكذلك مَنْ عبدوا القمر والنجوم، وقدماء المصريين عبدوا العجل؛ لأن فيضان النيل كان يغمر الأرض بالمياه، وكانوا يستخدمون العجل حين يريدون حَرْثَ الأرض.

وكان العجل أيّداً، أي: قوياً شديداً في حَرْث الأرض، وهذا مظهر من مظاهر القوة، ولكن كيف اتخذ قوم موسى من بعده عِجْلاً يعبدونه بعد أن أتمّ عليهم الله المنة العظيمة حين أنجاهم وأغرق فرعون وآله؟

وهنا أوضح لنا الله أنه جاوز ببني إسرائيل البحر، ومروا على قوم[2] يعبدون الأصنام، فقالوا لموسى عليه السلام:

﴿ اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ [الأعراف: ١٣٨].

وهذه قضية تهدم كل عبادة دون عبادة الله؛ لأن العبد لا بُدّ أن يتلقّى من

---

(١) قال قتادة في قوله: ﴿ مِّن حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ ﴾ [الأعراف: ١٤٨]، استعاروا حلياً من آل فرعون، فجمعه السامري فصاغ منه عجلاً فجعله الله جسداً لحماً ودماً له خوار. أورده السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٥٦٣).

(٢) قال قتادة: هم قوم لخم. وقال أبو عمران الجوني: هم لخم وجذام. (الدر المنثور ٣/ ٥٣٣) قال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٢٤٢): «قال بعض المفسرين: كانوا من الكنعانيين. وقيل: كانوا من لخم».

المعبود أوامر، وأن يكون عند المعبود منهج يريد من العبد أن يُنفِّذه، وأن يأتي المنهج بواسطة رسل يُبلِّغون رسالات الله وكلام الله للبشر.

أما الذين يعبدون الشمس ـ مثلاً ـ فنسألهم: لماذا تعبدونها؟ وما المنهج الذي أرسلته الشمس لكم؟ وهكذا يبطل أمامنا كل عبادة لغير الله من ناحية أن العبادة تقتضي أمراً ونَهْياً في «افعل» و«لا تفعل».

واتخاذ العجل في ذاته ليس معصية إذا اتخذته للحرْث أو للذبح لتأكل لحمه، ولكن المعصية هي اتخاذ العجل معبوداً، ولم تعبدوه سِرّاً بل عبدتموه جَهْراً، ولذلك فهو أمر ليس محتاجاً إلى شهود ولا إلى شهادة؛ لأنه حَدَث عَلَناً وأمام الناس كلهم.

وقد جاءهم موسى ـ عليه السلام ـ ببينات ومعجزات كثيرة كانت تكفي لتملأ قلوبكم بالإيمان، وتجعلكم لا تعبدون إلا الله، فلقد شَقَّ لكم البحر ومررتُم فيه وأنتم تنظرون وترون.

أي: أن المعجزة لم تكُنْ غَيْباً عنكم، بل حدثتْ أمامكم ورأيتموها، ولكنكم بمجرد أن تجاوزتم البحر وذهب موسى للقاء الله، بمجرد أن حدث ذلك اتخذتم العجل إلهاً من دون الله وعبدتموه، فكيف تدَّعُون أنكم آمنتم بما أُنزِل إليكم، لو كنتم قد آمنتم به ما كنتم اتخذتم العجل إلهاً.

وبعد أن ذكَّرهم الحق ـ سبحانه وتعالى ـ بكُفْرهم بعبادتهم للعجل، وكان هذا نوعاً من التأنيب الشديد والتذكير بالكفر، أراد أنْ يُؤنِّبهم مرة أخرى، وأنْ يُذكِّرهم أنهم آمنوا خَوْفاً من وقوع جبل الطور عليهم، ولم يكُنْ الجبل سيقع عليهم، لأن الله لا يقهر أحداً على الإيمان، ولكنهم بمجرد أنْ رَأَوْا جبل الطور فوقهم آمنوا.

ولا بُدَّ أنْ نؤمن أن رفع جبل الطور فوق اليهود لم يكُنْ لإجبارهم لأخذ الميثاق منهم حتى لا يُقال: إنهم أُجبروا على ذلك، ولكن اليهود قوم ماديون لا يؤمنون إلا بالمادة، والله تبارك وتعالى أراد أن يُريهم آية مادية لعلّ قلوبهم تخشع وتعود إلى ذكر الله.

ولقد قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ

﴿ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟[1] فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٣].

فالحق ـ تبارك وتعالى ـ يريد أنْ يُصوِّر لنا ماديتهم، فالحب أمر معنوي، وليس أمراً مادياً؛ لأنه غير محسوس، وسبحانه يريد أنْ يعطينا الصورة الواضحة الكاملة في أنهم أُشْرِبوا العجل ذاته، أي: دخل العجلُ إلى قلوبهم.

فالله ـ سبحانه وتعالى ـ يريد أنْ يلفتنا إلى الشيوع في كل شيء بكلمة ﴿أُشْرِبُوا﴾؛ لأنها وصف لِشُرْب الماء، والماء يتغلغل في كل الجسم، والصورة تُعرِب عن تغلغل المادية في قلوب بني إسرائيل، حتى كأن العجل دخل في قلوبهم، وتغلغل، كما يدخل الماء في الجسم، مع أن القلب لا تدخله الماديات.

ويقول سبحانه عنهم:

﴿وَلَمَّا سُقِطَ[2] فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٩].

وهذا يوضح لنا أن عبادة العجل بين قوم موسى صار لها جمهور. لكن الناس الذين امتلكوا قَدْراً من البصيرة أو بقية إيمان قالوا: هذه الحكاية سخيفة، وما كان لنا أنْ نفعلها وندموا على ما كان.

﴿سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ أي: جاءت أنيابهم على أيديهم، كأن الندم بلغ أشده، إن ذلك حدث من التائبين الذين أبصروا بعيونهم، ورأوا أن ذلك باطل وخُسْران، أي: قالوا: لئن لم يتداركنا الله برحمته ومغفرته لنكوننَّ من

---

(١) أشرب في قلبه الشيء أو أشرب حُبّه: أي خالط حبّه قلبه كأنه شربه. قال تعالى: ﴿وَأُشْرِبُوا فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ . . .﴾ [البقرة: ٩٣]، أي: حب العجل (القاموس القويم ١/ ٣٤٤).

(٢) قال الفارسي: ضربوا بأكفهم على أكفهم من الندم. وقال الفراء: يُقال سقط في يده وأسقط من الندامة. وسقط أكثر وأجود. (لسان العرب ـ مادة: سقط). وقال الإمام أبو يحيى زكريا الأنصاري في كتابه "فتح الرحمٰن بكشف ما يلتبس في القرآن" (ص١٥١): "إن قلت: كيف عبّر عن الندم بالسقوط في اليد؟ قلت: لأن عادة من اشتد ندمه على فائت، أن يعضّ يده غماً، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ [الفرقان: ٢٧]، فتصير يده مسقوطاً فيها، لأن فاه قد وقع فيها".

الهالكين، وهذا اعتراف منهم بذنبهم والتجاءً إلى الله عز وجل.

ثم رجع موسى بعد أنْ تلقَّى وَحْيَ الله، وأخذ الألواح، وبها من كل شيء موعظةً وتفصيلاً لكل شيء.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ . . .﴾ [الأعراف: ١٥٠].

وكونُ موسى يعود إلى قومه حالة كونه غضبان أسفاً، يدلُّنا على أنه علم الخبر بحكاية العجل، والغضب والأسف عملية نفسية فيها حزن وسمَّوْها «المواجيد النفسية» أي: الشيء الذي يجده الإنسان في نفسه، وقد يُعبَّر عن هذه المواجيد بانفعالات نزوعية، ولذلك تجد فارقاً بين مَنْ يحزن ويكبت في نفسه، وبين مَنْ يغضب.

فمَنْ يغضب تنتفخ أوداجه، ويحمر وجهه، ويستمر هياجه، وتبرق عيناه بالشر، وتندفع يداه، وصار موسى إلى الحالتين الاثنتين، وقدَّم الغضب لأنه رسول له منهجه. ولا يكفي في مثل هذا الأمر الحزن فقط، بل لا بُدَّ أن يكون هناك الغضب نتيجة هياج الجوارح.

والأسف عند موسى لن يظهر للمخالفين للمنهج، بل يظهر الغضب وهو عملية نزوعية، فالحزن قد اشتد عليه وتمكَّن منه، فقال لهم:

﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٥٠].

فقوله سبحانه: ﴿أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ . . .﴾ [الأعراف: ١٥٠].

أي: استبطأتموني. وهذا نتيجة لذهاب موسى لثلاثين ليلة وأتممها بعشر. فتساءل موسى: هل ظننتم أنني لن آتي؟ أو أنني أبطأت عليكم؟ وهل كنتم تعتقدون وتؤمنون من أجلي، أو من أجل إله قادر؟

فهنا يقول سيدنا موسى: افترضوا أنكم عجلتم الأمر واستبطأتموني، أو خفتم أن أكون قد متّ، فهل كنتم تعبدونني أو تعبدون ربنا؟ ثم: ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ . . .﴾ [الأعراف: ١٥٠].

وهنا في هذا الحديث القدسي: «**فلما عاين ألقى الألواح**».

ونعلم أن الألواح فيها المنهج، وقال عنها الحق سبحانه: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ

فِي ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الأعراف: ١٤٥].

وقد فصّل الحق سبحانه ما في الألواح في قوله تعالى:

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ[1] بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ۞ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤، ٤٥].

فالتوراة فيها نور وهدى، ويحكم بها النبيون والربانيون والأحبار بالوسيلة التي طلب الله منهم أن يحفظوها، وبما طلبه رسولهم منهم أن يحفظوا هذه التوراة.

وقد كتب الحق على اليهود في التوراة التي وصفها من قبل بأنها هدى ونور، كتب وأوجب عليهم أن النفس بالنفس.

هذه الألواح بما فيها من وصايا وأحكام ألقى بها موسى، ثم: ﴿ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ . . . ﴾ [الأعراف: ١٥٠].

وهذا نزوع غضبيٌّ جعله يأخذ برأس أخيه، كأن الأُخوّة هنا لا نفعَ لها، فماذا كان رَدّ الأخ هارون؟

﴿ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأعراف: ١٥٠].

ونلحظ أن هارون قال لأخيه: ﴿ ٱبْنَ أُمَّ ﴾ ولم يقل «ابن أب»، لأن أبا موسى وهارون طُوي اسمه في تاريخ النبوات، ولم يظهر عنه أيّ خبر، والعلم جاءنا عن أمه؛ لأنها هي التي قابلت المشقات في أمر حياته؛ لذلك جاء هنا بالقدر المشترك البارز في حياتهما.

---

(١) الحَبْر: العالم، وجمعه أحبار. (القاموس القويم ١/ ١٤٠). وهو العالم بتحبير الكلام والعلم وتحسينه. (اللسان ـ مادة: حبر).

وجاء الحق هنا بالقدر المشترك بينهما ـ موسى وهارون ـ وهو أخوة الأم، وله وجود مستحضر في تاريخهم، أما الأب عمران فنحن لا نعرف عنه شيئاً، وكل الآيات التي جاءت عن موسى متعلقة بأمه؛ لذلك نجد أخاه هارون يُكلِّمه بالأسلوب الذي يُحنِّنه:

﴿قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي﴾ [الأعراف: ١٥٠].

وما دام قد قال: ﴿وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي﴾ [الأعراف: ١٥٠]، فهذا دليل على أنه وقف منهم موقف المعارض والمقاوم الذي أدَّى ما عليه، لدرجة أنهم فكروا في قتله.

ويتابع الحق سبحانه بلسان هارون: ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٠].

والشماتة هي إظهار الفرح بمصيبة تقع بخصْم، والأعداء هم القوم الذين اتخذوا العجل، وقد وصفهم بالأعداء كدليل على أنه وقف منهم موقف العداوة، وأن موقف الخلاف بين موسى وهارون سيُفرحهم.

ولقد صنع موسى ذلك ليسمع العذر من هارون؛ لأنه يعلم أن هارون رسول مثله، وأراد أنْ يُسمعنا ويُسمع الدنيا حجة أخيه حين أوضح أنه لم يُقصِّر.

قال: إن القوم استضعفوني لأني وحدي، وكادوا يقتلونني، مما يدل على أنه قاومهم مقاومة وصلت وانتهت إلى آخر مجهودات الطاقة في الحياة، حتى أنهم كادوا يقتلونه.

إذن: فهو لم يوافقهم على شيء، ولكنه قاوم على قدر الطاقة البشرية؛ لذلك يُذيِّل الحق الآية بقوله سبحانه:

﴿وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٠].

وكأنه يقول لموسى: إنك إنْ آخذتني هذه المؤاخذة في حالة غضبك ربما ظُنَّ بي أنني كنتُ معهم، أو سلكتُ مسلكهم في اتخاذ العجل وعبادته.

وفي آية أخرى قال تعالى إن هارون قال لموسى: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ [طه: ٩٤].

موسى عاد من ميقات الله وهو في قمة الغضب، وأمسك بأخيه هارون يجُرُّه من رأسه ولحيته، وحينما قال هارون ذلك تنبه موسى إلى أمرين:

الأمر الأول: كيف يُلقِي الألواح وفيها المنهج؟

والأمر الثاني: كيف يأخذ أخاه هذه الأخذة قبل أنْ يتبيَّن وجه الحق منه؟

ولذلك قال موسى: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥١].

قال: يا ربِّ اغفر لي، إنْ كان قد بدرَ مِنِّي شيء يخالف منطق الصواب والحق، واغفر لأخي هارون ما صنع، فقد كان يجب عليه أنْ يأخذَ في قتال مَنْ عبدوا العجل حتى يمنعهم، أو ينالوا منه ولو ما دون القتل جُرْحاً أو خَدْشاً، ويطلب موسى لنفسه ولأخيه الرحمة.

ثم يقول تعالى:

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٤].

وهل للغضب سكوت؟ وهل للغضب مشاعر حتى يسكت؟ نعم؛ لأن الغضب هيجانُ النفس لتعمل عملاً نزوعياً أمام مَنْ أذنب، فكأن الغضب يُلح عليه، ويقول للغاضب: اضرب، اشتم، اقتل. فشبّه اللَّهُ الغضب بصورة إنسان يُلحُّ على موسى في أنْ يفعل كذا، ويفعل كذا، فلما قال الله ذلك كأن الغضب قد سكت عنه.

وأوّلُ عمل قام به موسى ساعةَ أنْ كان غضبان أَسِفاً أنه ألقى الألواح، وأول ما ذهب الغضب عنه وزايله أخذ الألواح، وهذا أمر منطقيٌّ، فالغضب جعله يُلقِي الألواح، ويأخذ برأس أخيه، ثم فهم ما فعله أخوه واعتذر به فقبل عذره، وطلب من اللَّه أنْ يغفر له، وأن يغفر لأخيه وانتهى الغضب، وكانت الألواح مُلْقاةً فأخذها ثانية.

ووصف الحق سبحانه الألواح، فقال:

﴿وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٤].

وقد وصف الحق سبحانه توراة موسى، فقال:

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ﴾ [المائدة: ٤٤].

فالهدى هو الطريق أو الدَّرْب الموصل للغاية، وهو ما يدل على الغايات؛ لأن دين الفطرة قد انطمس بعدم تبليغ الآباء إلى الأولاد منهج السماء في أمور الحياة ومتعلقاتها والقيم التي يجب أنْ تسودَ، ولكن الحق سبحانه وتعالى رحم غفلتنا، ورحم نسياتنا، فشرّع وأرسل لكل زمان رسولاً جديداً، وهَدْياً جديداً ليذكرنا.

وقال تعالى في آية أخرى: ﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٤].

والتمام هو استيعاب صفات الخير؛ ولذلك يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى ﴾ [المائدة: ٣].

« أكملْتُ » فلا نقصان. و« أتممتُ » فلا استدراكَ. فالإكمال هو أنْ يأتيَ الشيء على كماله، وكمالُ الشيء باستيفاء أجزائه، واستيفاء كل جزء للمراد منه. وقد أتمَّ اللَّه استمرار النعمة بتمام المنهج.

ولكن، لماذا جاء بالتمام على الذي أحسن في أمر موسى عليه السلام؟

جاء ذلك؛ لأن الذين تصدَّوْا للحاج والجدل معه ﷺ هم اليهود. وحينما جاء موسى ـ عليه السلام ـ بالتوراة كما أنزلها اللَّه عليه عاصره أناس آمنوا بما في التوراة، وكانوا من الناجين، وقد ماتوا.

أما الذين استمرت حياتهم إلى أنْ جاء رسول اللَّه، فكان المطلوب منهم أن يؤمنوا به، لأن الحق أوضح لهم في التوراة أن هناك رسولاً قادماً، ولا بُدَّ أنْ تؤمنوا حتى تتم نعمة الإحسان عليكم؛ لأنكم وإنْ كنتم مؤمنين بموسى وعاملين بمنهجه فلا بُدَّ من الإيمان بمحمد ﷺ.

والسابقون لكم أَحْسَنُوا في زمن بعثة رسالة موسى عليه السلام، وجاء محمد بالرسالة الخاتمة، فإنْ أردتُمْ أن يُتِمّ اللَّه عليكم الحسن والكرامة والنعمة، فلا بُدَّ أنْ تعلنوا الإيمان بمحمد ﷺ، منكم مَنْ أحسن الاقتداء بموسى عليه السلام وآمنوا بمحمد فتمَّ لهم الحُسْن.

ثم قال تعالى: ﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٤].

أي: أنه مناسب لزمنه أي: القيم التي تناسب الوقت الذي يعيشونه، فإذا ما جِئْنا بتفصيل جديد في القرآن فهو مناسب لوقته.

ولقائل أنْ يقولَ: هنا تفصيل، وهنا تفصيل، فما الفَرْق بين تفصيل وتفصيل؟ نقول: إن كُلَّ تفصيل مناسبٌ لزمنه، وآيات القرآن مُفصّلة جاهزة، ومُعدَّة لكل زمن وللناس جميعاً، إلى أنْ تقومَ الساعة.

وفي موضع آخر قال تعالى:

﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٥٣].

فالكتاب هو التوراة... والفرقان هو الأشياء التي يُفرِّق اللَّه فيها بين الحق والباطل، فكأن «الفرقان» يُطلَق مرة على التوراة؛ لأنها تُفرِّق بين الحق والباطل، ويُطْلَق أيضاً على كل ما يُفرِّق بين الحق والباطل.

ولذلك سُمِّيَ يوم بدر «يوم الفرقان»؛ لأنه فرَّق بين الحق والباطل، فكأن منهجَ اللَّه وكتابه يُبيِّن لنا أيْنَ الحق، وأين الباطل، ويُفرِّق بينهما.

والحق سبحانه يقول:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٠].

ولا يقول موسى لقومه: ﴿يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ إلا إذا كان قد رأى منهم عملاً لا يتناسب مع النعم التي أنعم اللَّه بها عليهم، فكأن قوم موسى قد أرهقوه وتحمَّل منهم الكثير؛ لدرجة أنه قال لهم على سبيل الزَّجر ما قد يجعلهم يفيقون وينتبهون ويفطنون إلى ذِكْر نعمة اللَّه عليهم.

ومعنى ذِكْر النعمة هو الاستماع إلى منهج اللَّه وتنفيذ أوامر الحق واجتناب النواهي.

فذِكْر النعمة يؤدي إلى شكر المنعم، ويؤدي أيضاً إلى الاستحياء من أن نعصي مَنْ أنعم، ويجعلنا نستحي أنْ نأخذَ نعمته لتكونَ مُعيناً لنا على معصيته.

﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ٢٠].

وهي نِعَم كثيرة تمتَّعوا بها، إنها عجائب كثيرة تتجلى فيها قدرة الخالق

الأعظم، وتُبيِّن القدرة مجالات تصرُّفها، فقد ضرب موسى البحر فصار كل فِرْق كالطَّوْد العظيم، وكأن الماء صار صخراً، وضرب موسى الصخر فتفجرت المياه.

إنها عجائب القدرة، ألم يُظلِّكم بالغمام؟ ألم يُنزِل عليكم في التِّيه المنَّ والسَّلْوى؟

كُلُّ هذه النعم، أَلَا تستحق الذكر لله والشكر لله والاستحياء من أنْ تعصوه، أو أنْ تُرهِقوا الرسول الذي جاء لهدايتكم؟

إن كُلَّ هذه النعم تستحق الشكر، والشكر ذِكْر، وأكثر من هذا فإن الحق سبحانه أرسل إليهم كثيراً من الرسل، فكلما أدركتْهُم غفلة فإن الحق يُرسِل لهم نبياً، فكلما عَصَوْا الله واستعصتْ داءاتهم أرسلَ لهم رسولاً.

وكان عليهم أنْ يعلموا أنَّ داءاتهم قد كثُرتْ، وصار مرضهم مُسْتعصياً؛ لأنه لو لم يكُنْ المرض مُسْتعصياً لَمَا كانوا في حاجة إلى هذه الكثرة من الأطباء والأنبياء، ومع ذلك رحمهم الله، وكلما زَادَ داؤهم أرسل لهم نبياً.

ولم يكْتَفِ الحق ـ سبحانه وتعالى ـ بأنْ جعل فيهم أنبياء، بل قال:

﴿ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا ﴾ [المائدة: ٢٠].

ولكن، هل قابل بنو إسرائيل نعم الله الكثيرة بالشكر والامتثال للمنهج؟ هل التزموا بما جاء في هذه الألواح؟

قال تعالى: ﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء: ٤٦].

فالكلام المنزَّل من الله وُضِع أولاً وَضْعه الحقيقي، ثم أزالوه وبدَّلوه، ووضعوا مكانه كلاماً غيره، فقوله تعالى: ﴿ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ﴾ [المائدة: ٤١]، فتفيد أنهم رفعوا الكلام المقدَّس من موضعه الحق، ووضعوه موضع الباطل، بالتأويل والتحريف حَسْب أهوائهم بما اقتضتْه شهواتهم، فكأنه كانت له مواضع، وهو جدير بها.

وقال تعالى: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ

﴿ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ [المائدة: ١٣].

فَهُمْ على قدر كبير من السوء، بدرجة أنستهم الشيء الذي يأتي لهم بالحظِّ الكبير، مثل نسياتهم البشارات بمحمد ﷺ وكتمانها، ولو كانوا قد آمنوا بها لكان حظُّهم كبيراً، ذلك أنهم نسُوا أمراً كان يعطيهم جزاءً حَسَناً.

والنسيان قد يكون عدم قدرة على الاستيعاب، لكنه أيضاً دليل على أن المنهج لم يكُنْ على بالهم، فلو كانت كتب المنهج على بالهم لظلُّوا على ذِكْر منه، كما أنهم كتموا ما لم ينسُوه، والذي لم ينسوه ولم يكتموه حرَّفوه ولووْا ألسنتهم به.

وليت الأمر اقتصر على ذلك، ولكنهم جاؤوا بأشياء وأقاويل، وقالوا إنها من عند الله، وهي ليست من عند الله.

يقول الحق سبحانه:

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩].

إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يريد هنا أنْ يُبَيِّن لنا مدى تعمُّد هؤلاء للإثم، فهم لا يكتفُونَ مثلاً بأن يقولوا لغيرهم: اكتبوا، ولكن لاهتمامهم بتزييف كلام الله سبحانه وتزويره يقومون بذلك بأيديهم ليتأكدوا أن الأمر قد تَمَّ كما يريدون تماماً، فليست المسألة نزوة عابرة، ولكنها مع سَبْق الإصرار والترصُّد، وهم يريدون بذلك أنْ يشتروا ثمناً قليلاً، هو المال أو ما يُسمَّى بالسُّلطة الزمنية، يحكمون ويكون لهم نفوذ وسلطان.

إنهم افتروا على الله الكذب عندما فعلوا ذلك؛ نَسُوا حظاً مما ذُكِّرُوا به، وكتموا بعضاً من الكتب المنزَّلة إليهم، وحَرَّفوا الآيات المنزَّلة إليهم، وجاؤوا بأقوال من عندهم ونسبوها إلى الله.

بَاب التَّوْبة والرَّحْمَة

٣٨ ـ عَنِ ابْنِ عبَّاسٍ قال: قالتْ قُرَيْشٌ للنبي ﷺ: ادْعُ لنا رَبَّكَ أنْ يجعلَ لنا الصَّفَا ذَهَباً ونُؤمن بك، قال: وتفعلُونَ؟ قَالُوا: نَعَمْ. قال: فَدَعَا فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ فقالَ: «إنَّ ربَّكَ ـ عزَّ وجلَّ ـ يقرأ عليكَ السَّلَام. ويَقُولُ: إنْ شِئْتَ أَصْبحَ لَهُم الصَّفَا ذَهَباً، فمَنْ كفَر بَعْدَ ذلكَ منهم عَذَّبْتُهُ عَذَاباً لا أُعَذِّبُه أَحداً مِنَ العَالمينَ، وإنْ شِئْتَ فتحتُ لهم بَابَ التَّوْبة والرَّحْمةِ. قَالَ: بَلْ بَاب التَّوبة والرَّحْمةِ»[1].

يقول الحق سبحانه عن مُشْركي قريش:

﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ۝ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ۝ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا[2] أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ۝ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ [الإسراء: ٩٣].

والمتأمّل في كل هذه الاقتراحات من كفار مكة يجدها بعيدة كل البعد عن مجال المعجزة التي يُراد بها في المقام الأول تثبيت الرسول، وبيان صِدْق رسالته وتبليغه عن الله.

وهذه لا تكون إلا في أمر نبغَ فيه قومه ولهُمْ به إلمام، وهم أمة كلام وفصاحة وبلاغة، وهل لهم إلمام بتفجير الينابيع من الأرض؟ وهل إسقاط السماء عليهم كِسَفاً يقوم دليلاً على صِدْق الرسول؟ أم أنه الجدل العقيم والاستكبار عن قبول الحق.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١/ ٢٤٢)، والحاكم في مستدركه (١/ ٥٣ ـ ٢/ ٣١٤ ـ ٤/ ٢٤٠) وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه» وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ١٩٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما وقال: «رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح».

(٢) كِسَف السحاب: قِطَعه. فكل شيء كسفته فقد قطعته. (لسان العرب ـ مادة: كسف).

فظهر من هذا القول سوء النية المبيَّتة منهم، فالرسول لن يأتي بالآيات، بل تأتيه الآيات بالأمر المكلَّف به؛ لأن الرسول لا يختار ما يُؤتى به من آيات، ولكن الحق سبحانه هو الذي يُرسِل الآيات المناسبة.

ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾ [المائدة: ١٠٢].

والحق ـ تبارك وتعالى ـ لم يرسل هذه الآيات رحمةً بمَنْ سألوا الرسول ﷺ عنها، فقد سأل قوم[١] عن ناقة وعقروها فأبادهم الله، وقوم عيسى عليه السلام سألوا عن مائدة ونزلت عليهم، وتوعَّدهم الحق بعدها إنْ لم يؤمنوا، وكانت سنة الله مع خَلْقه إن اقترحوا هم آية ولم يُصدِّقوها، فإن الحق يُهلِكهم أو يُعذِّبهم.

وحين يطلب أتباع الرسول آيات معينة، إنما يحمل هذا الطلب في طياته التفلّت والتحلّل من الالتزام بمنهج الله، كأن الذين يطلبونها يصرون على الكفر بالرسول على الرغم من طلبهم الآية.

ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩].

فليس لأحد أن يقترح على الله أو يُجبره على شيء، والحق ـ تبارك وتعالى ـ قادر أن يُنزِل عليهم ما اقترحوه من الآيات، فهو سبحانه لا يُعجزه شيء، ولا يتعاظمه شيء، ولكن للبشر قبل ذلك سابقة مع المعجزات.

يقول تعالى: ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾ [الإسراء: ٥٩].

فقوم ثمود طلبوا معجزة بعينها[٢]، فأجابهم الله وأنزلها لهم، فَمَا كان

---

(١) يقول تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٧٣]، ثم قال تعالى: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ [الأعراف: ٧٧].

(٢) قال ابن كثير في تفسيره (٢/ ٢٢٨): «كانوا هم الذين سألوا صالحاً أن يأتيهم بآية، واقترحوا عليه بأن تخرج لهم من صخرة صماء عيّنوها بأنفسهم وهي صخرة منفردة في =

منهم إلا أنِ استكبروا عن الإيمان، وكفروا بالآية التي طلبوها، بل وأكثر من ذلك ظلموا بها. أي: جاروا على الناقة نفسها، وتجرَّأوا عليها فعقروها.

هذه السابقة مع ثمود هي التي منعتنا عن إجابة أهل مكة فيما اقترحوه من الآيات، وليس عَجْزاً مِنَّا عن الإتيان بها.

فالمسألة ليست مسألة الإتيان بالآيات والمعجزات، فالله سبحانه قادر قدرةً مطلقة لا يُعجزه شيء، فمجيء الآيات وتكرارها لن يفيدهم في الاتجاه إلى الإيمان؛ لأن الحق سبحانه يعلم أنهم سيتوجهون باختيارهم إلى الكفر.

والحق سبحانه يقول:

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ [الرعد: ٢٧].

فالكافرون تساءلوا ـ كذباً ـ عن مجيء آية، وكان تساؤلهم بعد مجيء القرآن، وهذا كذب واقع يناقضون به أنفسهم، فقد قالوا: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

وهم بذلك قد اعترفوا أن القرآن بلغ حَدَّ الإعجاز وتمنَّوْا لو أنه نزل على واحد من عظماء القريتين «مكة أو الطائف».

وهم من قالوا أيضاً: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦].

ثم يعودون هنا لينكروا الاعتراف بالقرآن كمعجزة، على الرغم من أنه قد جاء من جنس ما نبغُوا فيه، فهم يتذوقون الأدب والبيان، والفصاحة، ويقيمون الأسواق ليعرضوا إنتاجهم في البلاغة والقصائد، فهم أمة تطرب فيها الأذن لما ينطقه اللسان.

ولكنهم هنا يطلبون آية كونية كالتي نزلت على الرسل السابقين عليهم

= ناحية الحجر يقال لها الكاتبة، فطلبوا منه أن يخرج لهم منها ناقة عشراء تمخض فأخذ عليهم صالح العهود والمواثيق: لئن أجابهم الله إلى سؤالهم وأجابهم إلى طلبتهم ليؤمنن به وليتبعنه، فلما أعطوه على ذلك عهودهم ومواثيقهم قام صالح عليه السلام إلى صلاته ودعا الله عز وجل فتحركت تلك الصخرة ثم انصدعت عن ناقة جوفاء وبراء يتحرك جنينها بين جنبيها».

السلام، ونسوا أن الآية الكونية عمرها مقصور على وقت حدوثها، ومَنْ رآها هو مَنْ يُصَدِّقها، أو يُصدِّقها مَنْ يخبره بها مصدر موثوق به.

والحق سبحانه يُبيّن لنا أنهم غارقون في العناد ولن يؤمنوا، وأن أقوالهم تلك هي مجرد حجج يتلكّؤون بها حتى لا يؤمنوا، فتعنتوا، ولم يكتفوا بالقرآن معجزة وآياتٍ تدلهم إلى سواء السبيل، بل اقترحوا هم الآية حَسْب أهوائهم، ولذلك نجدهم قد ضلُّوا.

ويقول الحق سبحانه عن اقتراح من اقتراحاتهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ [الفرقان: ٢١].

والمتأمل فيما طلبه الكفار من رسول الله ﷺ يجده تعجيزاً بعيداً كل البُعْد عن الواقع، مما يدلنا على أنهم ما أرادوا الإيمان والهداية، بل قصدوا الجدل والعناد.

لذلك يقول الحق سبحانه رَدّاً على لجج هؤلاء وتعنُّتهم:

﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟﴾ [الأنعام: ١١١].

وقد قالوا أيضاً: ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ[1] أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٣].

ويظهر أنهم تسرَّعوا في هذا القول، ورأَوْا إمكانية ذلك، فسارعوا إلى إعلان ما تنطوي عليه نفوسهم من عناد: ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾ [الإسراء: ٩٣].

وكأنهم يُبيّتون العناد لرسول الله، فهم كاذبون في الأولى، وكاذبون في الثانية، ولو نزَّل الله عليهم الكتاب الذي أرادوا ما آمنوا.

وقد رَدَّ عليهم الحق سبحانه بقوله: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ[2]

---

(١) الزخرف: الذهب، ثم استعمل في الزينة وفي أثاث البيت الجميل. وقوله: تعالى: ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾ [الإسراء: ٩٣]، أي: من ذهب أو كله زينة وأثاث جميل. (القاموس القويم ١/ ٢٨٥).

(٢) القرطاس: الصحيفة يكتب فيه من ورق أو نحوه. (القاموس القويم ٢/ ١١٣).

﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [الأنعام: ٧].

فقد طالب المكذّبون الرسول ﷺ أن يُنزّل عليهم كتاباً من السماء ليقرأوه كشرط من ضمن شروط أخرى، فبعد أنْ وضّح لهم إعجاز القرآن حاولوا زوراً، واقترحوا من الآيات ليؤمنوا، كأن يُفجّر لهم الرسول ﷺ يَنْبُوعاً في أرض مكة لا ينقطع ماؤه، أو يكون لرسول الله ﷺ بمكة بستان من نخيل وعنب، تتخلله الأنهار، أو أن يدعوَ رسول الله ﷺ أن تُنزل عليهم السماء قِطعاً كعذاب شديد.

أو أنْ يتجسّدَ لهم الله والملائكة ليَروْهم رَأيَ العين، أو أن يكون لرسول الله بيت من ذهب مزخرف، أو أنْ يصعد إلى السماء ويأتيهم بكتاب من الله يقرر صدق رسالته، ولكن الله برحمته واتساع حنانه يُنزّه ذاته أن يتحكم فيه أحد، أو يشاركه في قدرته، فيعلن لهم على لسان رسوله ﷺ قوله سبحانه وتعالى:

﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٣].

لأن الذي يبعث الآيات هو رَبُّ العالمين، ولا أحدَ يجرؤ أن يفرض على الله آياته، ورسول الله ﷺ هو مستقبل لآيات الله لا مقترحٌ للآيات، ذلك أنه ﷺ يعلم أن مَنْ يقترح على الله آية ثم تأتي، فيكذب بها يصيبه وينالَه الهلاك، هذه سنة الله.

وانظر إلى رَدّ القرآن على كُلّ هذا التعنُّت السابق: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي...﴾ [الإسراء: ٩٣].

ولأن الأمور التي طلبوها أمور بلغتْ من العجب حَدّاً، ولا يمكن أن يُتعجب منها إلا بسبحان الله؛ لأنها كلمة التعجُّب الوحيدة والتي لا تُطلق لغير الله، وكأنه أرجع الأمور كلها لله، ولقد كان لهم غِنىً عن ذلك في كتاب الله الذي نزل إليهم.

﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١].

وقد قال الحواريون لعيسى ابن مريم عليه السلام:

﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ١١٢].

كأن عيسى قال لهم: عليكم بتقوى الله فلا تسألوه هذه الآية؛ لأنكم ما دُمْتُمْ قد أعلنتم الإيمان فأنتم لا تقترحون على الله آية لإثبات صِدْق رسوله، وحَسْبكم ما أعطاه الله لي من آيات لصدق رسالتي، وعليكم أنْ تُلزِموا أنفسكم بالمنهج الذي أعلنتم أنكم مؤمنون به.

﴿قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة: ١١٣].

وكأنهم أرادوا أنْ يتشبَّهوا بسيدنا إبراهيم الخليل عندما سأل الله عن كيفية إحياء الموتى ليطمئن قلبه، لقد آمنوا بعلم اليقين، ويريدون الآن الانتقال إلى عَيْن اليقين؛ لذلك سألوا عن المائدة التي صارت بعد ذلك حقيقة واضحة.

وهكذا نعرف أن هناك فارقاً بين أنْ يؤمن الإنسان بذاته، وأنْ يشهد بالإيمان عند غيره، فالذي يشهد بالإيمان عند غيره يحتاج إلى يقين أعمق.

ويخبرنا الحق بما قاله عيسى عليه السلام، وهو يختلف عن قولهم في هذه المائدة ـ قال سبحانه:

﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [المائدة: ١١٤].

والمقارنة بين قَوْل الحواريين وقَوْل عيسى عليه السلام تدلُّنا على الفارق بين إيمان المبلِّغ عن الله، وإيمان الذين تلقَّوْا البلاغ عن عيسى، إيمان عيسى هو الإيمان القويّ الناضج، أما إيمان الحواريين فهو إيمان ناقص.

لقد كانت قوة إيمان عيسى نابعة من أنه يتلقَّى عن الله مباشرة، أما الحواريون فليسوا كذلك، على الرغم من أنهم آمنوا بالبلاغ عن الله، وتَمَّ ذلك بواسطة رسول؛ ولذلك يعلو الرسول على المؤمنين ببلاغه في سُلَّم الإيمان درجة أعلى، إنه يتلقى عن الله؛ ولهذا صَحَّح عيسى عليه السلام طلبهم من الله وهو يدعو ربه.

لقد قال عيسى داعياً الله: ﴿اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [المائدة: ١١٤].

وألزم عيسى نفسه بنداء الألوهية أولاً معترفاً بالعبودية لله، ملتزماً بالتكليف القادم منه، ثم جاء بنداء الربوبية، فيا مَنْ أنزلتَ علينا التكليف، ويا مَنْ تتولّى تربيتنا نحن ندعوك أن تُنزل علينا مائدة من السماء.

وأخذ نداؤه زاوية القيم، ثم زاوية المادية وهي الرزق، لكن الحواريين قدَّموا بشريتهم، فطلبوا من المائدة الأكل والطعام، فقالوا: ﴿نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: ١١٣].

أما عيسى ابن مريم عليه السلام فقد أخّر الطعام عن القيم بصفائية اختياره رسولاً، فقال: ﴿اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [المائدة: ١١٤].

ويجيب الحق سبحانه على دعاء عيسى ابن مريم عليه السَّلام: ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ١١٥].

وقد اختلف العلماء[1]: أأنزل الحق سبحانه وتعالى المائدة، أم لم ينزلها؟ إن هناك مَنْ تمسَّكوا بقول الحق سبحانه: ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ . . .﴾ [المائدة: ١١٥]. وهناك مَنْ قالوا: إن الحق سبحانه وضع شرطاً لنزول المائدة، وهو إنزال العذاب بهم إن لم يؤمنوا، فتراجعوا عن طلب إنزالها.

---

(١) اختلف العلماء على قولين:

الأول: أنها لم تنزل. قال مجاهد: هو مثل ضربه الله ولم ينزل شيء وكذا قال الحسن البصري. وقال مجاهد أيضاً: مائدة عليها طعام أبزها. قال ابن كثير في تفسيره (٢/ ١١٩): «هذه أسانيد صحيحة إلى مجاهد والحسن وقد يتقوى ذلك بأن خبر المائدة لا يعرفه النصارى وليس هو في كتابهم ولو كانت قد نزلت لكان ذلك مما تتوفر الدواعي على نقله وكان يكون موجوداً في كتابهم متواتراً ولا أقل من الآحاد، والله أعلم».

الثاني: أنها نزلت. قال ابن كثير في تفسيره: «الذي عليه الجمهور أنها نزلت، وهو الذي اختاره ابن جرير، قال: لأن الله تعالى أخبر بنزولها ووعد الله ووعيده حق وصدق، وهذا القول هو الصواب، كما دلت عليه الأخبار والآثار عن السلف وغيرهم».

وكان محمد ﷺ رحيماً بآله وعشيرته؛ لذلك لم يطلب من الحق آيات غير التي أنزلها الله عليه.

والرسول ﷺ كان يُحزنه أنْ يسارعَ البعض في الكفر، فقد كان ﷺ يحرص على أنْ يؤمن الناس جميعاً ليذوقوا حلاوة ما جاء به، هذا الحرص هو الذي يدفع الحزن إلى قلبه، فهو ﷺ رؤوف رحيم بالمؤمنين، بل وبالناس جميعاً.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

ودليل ذلك أن جاءه التخيير، فقد نادى جبريل رسول الله ﷺ، وقال: «إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردّوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم. قال: فناداني ملك الجبال وسَلَّم عليّ، ثم قال: يا محمد، إن الله قد بعثني إليك وأنا ملك الجبال لتأمرني بأمرك، فما شِئْتَ؟ إنْ شِئْتَ أُطبِق عليهم الأخشبين[1]؟ فقال النبي ﷺ: **بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً**»[2].

فالرسول ﷺ لا يُبْقي على هؤلاء فقط، ولكنه يحرص أيضاً على الأجيال القادمة، وقد كان، وخرج من أولاد كفار قريش صناديد وأبطال وجنود دعوة وشهداء.

فكان رسول الله ـ كما أخبر الله في آيات القرآن ـ يحزن عندما لا يذوق أحد حلاوة الإيمان، يقول الحق سبحانه: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦].

ولذلك حين عَلِم الحق ـ عِلْم وقوع ـ أن رسول الله مهتم بأمر أمته ومشغول بها وحريص على أنْ يشملها الله بمغفرته ورحمته، وألا يسوؤه فيها، أخبره المولى ـ عز وجل ـ بأنه سوف يُرضِيه في أمته.

وقد ورد في الحديث ما يؤيد ذلك، فقد روى عبد الله بن عمرو بن

---

(١) الأخشبان: هما جبلا مكة، أبو قبيس والجبل الذي يقابله، قال ابن حجر في الفتح (٦/ ٣١٦): «سمّيا بذلك لصلابتهما وغلظ حجارتهما».

(٢) حديث متفق عليه. أخرجه البخاري في صحيحه (٣٢٣١، ٧٣٨٩)، وكذا مسلم في صحيحه (١٧٩٥) من حديث عائشة رضي الله عنها.

العاص أن النبي ﷺ تلا قَوْلَ اللَّه عز وجل في إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦]، وقول عيسى عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨].

فرفع ﷺ يديه فقال: أمتي أمتي وبكى، فقال اللَّه عز وجل: يا جبريل اذهب إلى محمد ـ وربك أعلم فَسَلْهُ: ما يبكيه؟ فأتاه جبريل فأخبره رسول اللَّه ﷺ بما قال وهو أعلم، فقال اللَّه تعالى: «**يا جبريل اذهب إلى محمد، فقل: إنَّا سنُرضيك في أمتك ولا نسوؤك**»[1].

فمن رأفته ﷺ صَعُب على نفسه أنْ ينال قومه مشقة، فالرحمة والرأفة مصدرهما ما وهبه اللَّه إياه من فَهْم لقيمة نعمة الإيمان.

ولقد امتنّ اللَّه على أمة العرب التي استقبلتْ دعوة اللَّه على لسان رسوله ﷺ بأنْ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم ومن أوسطهم، يعرفون حَسَبه ونسبه وتاريخه وأخلاقه، وقد كان ﷺ محباً لقومه حريصاً على هدايتهم.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

أي: تعز عليه مشقتكم ويؤلمه عنتكم وتعبكم، حريص عليكم، يريد أن يستكمل لكم كل أنواع الخير؛ لأن معنى الحرص الضَّنُّ بالشيء، فكأنه ﷺ يضِنُّ بقومه.

وقد أوضح رسول اللَّه ﷺ هذا المعنى في الحديث الشريف:

«**إنما مثلي ومثل أمتي كمثل رجل استوقد ناراً، فجعلت الدواب والفراش يقعن فيه، فأنا آخذ بحجزكم[2] وأنتم تقحمون فيه**»[3].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٠٢) كتاب الإيمان من حديث عبد اللَّه بن عمرو بن العاص وقد شرح فضيلة الشيخ الشعراوي هذا الحديث في (المجلد ١/ ص٥١٥ ـ ٥٣٢).

(٢) حُجزة الإنسان: معقد السراويل والإزار. واحتجز بالإزار إذا شدَّه على وسطه. فاستعاره للالتجاء والاعتصام والتمسُّك بالشيء والتعلق به. (لسان العرب ـ مادة: حجز).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٢٨٤) كتاب الفضائل، من حديث أبي هريرة رضي اللَّه عنه.

لذلك حَزِن رسول اللَّه ﷺ على قومه لما رأى من كفرهم وعنادهم وتكبُّرهم عن قبول الحق، وهو يريد لهم الهداية والصلاح؛ لأنك إذا أحببتَ إنساناً أحببت له ما تراه من الخير، كمَنْ ذهب إلى سوق، فوجدها رائجة رابحة، فدلّ عليها مَنْ يحب من أهله ومعارفه.

كذلك لما ذاق رسول اللَّه ﷺ حلاوة الإيمان أحب أن يشاركه قومه هذه المتعة الإيمانية، والحق ـ سبحانه وتعالى ـ يُسلِّي رسوله، ويُخفِّف عنه ما صُدِم في قومه، فيقول له:

﴿وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧].

وفي آية أخرى يقول سبحانه:

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

فالمسألة ليست مسألتك أنت، إنهم يعرفون أنك يا محمد صادق لا تكذب أبداً، فالحق سبحانه يخاطب رسوله ﷺ هنا للتسلية، ويعطيه الأُسْوة التي تجعله غير حزين مما يفعله اليهود والمكذِّبون به، فيقول:

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ [آل عمران: ١٨٤].

فالحق سبحانه يُوضح لرسوله ﷺ: إنْ كذَّبوك الآن فيما تنقل لهم من أخبار السماء، فلا تبتئس ولا تحزن، فهذا التكذيب ظاهرة عانى منها كل الرُّسل السابقين لك؛ لأنهم يجيئون بما يُنكره المرسل إليهم أولاً، فلا بُدَّ أنْ يُكذِّبوا.

والرسول ﷺ لم يكُنْ رحمة لمن أُرسِل إليهم فقط، ولكنه رحمة للعالمين جميعهم، والعالم هو كل ما سوى اللَّه، فالملائكة عالم، والجن عالَم، والحيوان عالَم، والنبات عالَم، فالرسول ﷺ رحمة لكل هذه العوالم.

وانظر إلى رحمة رسول اللَّه ﷺ بالحيوان في قوله الشريف: «دخلت

امرأة النار في هِرَّة حبستها، لا هي أطعمتها، ولا سقتها، ولا تركتها تأكل من خشاش[١] الأرض»[٢].

كما يخبرنا حديث آخر أن اللَّه غفر لرجل سَقى كلباً، كان يلهث من شدة العطش، فنزل البئر وملأ خُفَّه ماء وسقى الكلب فغفر اللَّه له. فحتى الكلب نالته الرحمة[٣].

فكُلُّ ما جاء به النبي ﷺ داخل في عناصر الرحمة، فاللَّه تعالى أرسل رسوله رحمةً للعالمين، وحتى ينال الناس هذه الرحمة لا بُدَّ أنْ يؤمنوا باللَّه ويتبعوا منهجه، فإنْ أعرضوا وتولَّوْا فلا عُذْرَ لهم ولا حجة.

❁ ❁ ❁

(١) من خشاش الأرض: يعني من هوامّ الأرض وحشراتها ودوابها وما أشبهها. (لسان العرب ـ مادة: خشش).

(٢) حديث متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه (٢٣١٨)، وكذا مسلم في صحيحه (٢٢٤٢) من حديث عبد اللَّه بن عمر رضي اللَّه عنهما.

(٣) عن أبي هريرة رضي اللَّه عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال: بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش، فوجد بئراً فنزل فيها فشرب، ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ بي، فنزل البئر فملأ خُفَّه ثم أمسكه بفيه فسقى الكلب، فشكر اللَّه له فغفر له. قالوا: يا رسول اللَّه، وإن لنا في البهائم أجراً؟ فقال: في كل ذات كبد رطبة أجر» أخرجه البخاري في صحيحه (٦٠٠٩)، وكذا مسلم في صحيحه (٢٢٤٤) كتاب السلام.